صنع « عاقل » من راحتيه كأساً لذقنه وحدج النافذة بنظره ، وراح يفكر .. هذه ثالثة مرة فى أسبوع واحد يدس ريالاً لزوجته تحت الوسادة ، ويخرج من البيت متسللاً كاللص على أطراف أصابعه لئلا تستيقظ فتسرد له الحاجات المختلفة التى تقتضى زيادة فى النفقة فما يكفى ريال للمطالب العديدة التى يعرفها ولا يجهلها . وماذا عساها تصنع فيما ركبها من الدين ؟.. اللبان له عشرة قروش . والخباز له أكثر من ثمانية عشر قرشاً ... وغيرهما أيضاً ... وكانت العادة أن يؤدى ثمن مايأخذ ، فارتاب هؤلاء الناس لما رأوا أنه يأخذ ولا يؤدى الثمن ، ولو كان عودهم غير ذلك لاعتادوه ، فان غيره يأخذ ويعطى أول الشهر ... ولم يكن يعجزه أن يترك لامرأته ما يكفى ، ولكن . . ولكن ماذا ؟ ماله لا يصارح نفسه ؟ أليست الحقيقة أنه مل هذه الحياة الجافة التى لم يعد يجد فيها متعة أو لذة فهو يضن على بيته وأولاده بما معه لعل وعسى ؟ ؟ عسى أن يتفق أن يلقى مايسره ويجدد نفسه فلا يقول كما قال السمير : « فترانى طول عمرى تائباً من غير عفة ؟ » عسى ؟ أيكذب حتى على نفسه ؟ ويأبى إلا أن يغالط ، وإن كان لا أحد معه ؟ سبحان الله ! أليس على موعد مع « سميرة » تلك الفتاة التى عرفها من صديق له ، وتشبث بها ، كأنها كنز ، لا لأنها كنز بل لأنها تعينه على تغيير هذه الحياة المطردة التى لا تختلف ولا تتنوع ؟ ولو ترك لزوجته الكفاية أما كان يسعه أن يلقى سميرة ، وأن يقضى معها ساعات ينسى فيها أن حياته مملة ، وأن وتيرتها واحدة ، وأن روحه زهقت ؟. آه لماذا لا تستطيع الزوجة أن تكون أبداً جديدة ؟. لماذا تدع زوجها يمل حياته معها ، وإن كان يحبها ويعرف لها قدرها ويشكر إخلاصها ووفاءها ؟ المصيبة أن الزوجة لا يخطر لها أن الرجل يمل هذه الوتيرة الواحدة ... لا يخطر لها أنها هى لا تستطيع أن تأكل كل يوم « ملوخية » لماذا لا تكلف نفسها عناء التفكير فى ما هو خليق أن يجعل الحياة معها كل يوم جديدة ؟ لماذا تفرض أنه لن يمل أو يضجر أو يسأم هذا العيش الذى لا يتغير ..؟

ولم يكن عيب « عاقل » قلة الانصاف ، فلم يسعه إلا أن يقول لنفسه ، وهو مسند ذقنه إلى راحتيه ، إن زوجته أيضاً مثله : أى خليقة أن تمل وأن تضجر ولكنها لا تضجر ولا تمل ، ولا تلتمس مثله التسلية والترفيه عن النفس بما يتفق أن تفوز به خارج

البيت .. بل هى لا تخرج أبداً . إلا إذا كانت معه ولزيارة قريب مريض ، أولداع من هذا القبيل ، ليس لها سواه .. هو محور عالمها كله . لا تكاد تعرف لنفسها حقاً يقابل واجباتها ... حسبها أنها تأكل وتشرب وتلبس وأن تكون حقيبتها فيها جنيهان أو ثلاثة .. ما يكفيها والسلام . فما لها مطلب تعرفه وراء ذلك . لا سينما ولا خلافه ... لم تطلب منه قط أن يحملها معه فى سيارته وأن يجول بها جولة فى الهواء الطلق ... كلا ... أبدا ... مسكينة ... وإنها لأحق بالسيارة منه فقد أبت له أن يركب تلك السيارة القديمة وألحت عليه أن يشترى أخرى جديدة تليق به فاعتذر بانه ليس معه مال ، فخرجت له عن كل ما ادخرت .. ثلاثين جنيهاً وضعتها فى يده ليتيسر له أن يشترى سيارة جديدة بالتقسيط ... ولشد ما يفرحها أن تراه مقبلاً فى السيارة الجديدة وتركب أحيانا معه فتقول له وهى تضحك : « إنها سيارتى . أليست كذلك ؟ » فيقول : « بالطبع » فتقول : « إذن من حقى أن أستعمل الكلاكسون » فيقول : « كما تشائين » فيسرها أنها تضغط الزر من حين إلى حين فيصيح «الكلاكسون» بالناس أن تنحوا عن الطريق . وتضحك مسرورة ثم تخجل فتكف .

ولكن من الانصاف لنفسه أن يقول إن قناعتها به راجعة إلى أن أفقها محدود ، وضيق الأفق نقص ولكنه أثر فضيلة لا شك فيها ؛ أما هو فرحيبُ أفقِ النفس ، فاذا كان لا يقنع بالحياة الضيقة المملة الفئة ، فالسبب هو هذه السمة فى روحه وفى آفاقه ، وبالتالى فى مطالبه وحاجات نفسه .. ومع ذلك ما داعى هذه الفلسفة كلها ؟ .. الواقع أنه لا يحس بامكان القناعة بهذه الحياة الجافة التى لا تنويع فيها ولا اختلاف فى وجوهها ، والمسألة هى لماذا لم يستطع أن يحكم تدبير الجانب المالى بحيث يتيسر له أن يؤدى مطالب البيت على الوجه الكافى المريح ، وأن يستبقى بعد ذلك ما يحتاج إليه فى سد المطالب الأخرى ؟ .. هذه هى المسألة الجديرة بالتفكير والعناية ، وما عدا ذلك كلام لن يغير من الواقع شيئاً ، ولن يسوغ قبيحاً أو يقبح حسناً

بل هناك مسألة أخرى أحوج إلى البت السريع وتلك أنه على موعد مع « سميرة » ولكن صديقاً له دعاه إلى الغداء مع « رفقة » وهى فتاة مسلمة تتسمى هذا الاسم الاسرائيلى ؛ ورفقة شىء جديد ، فلها حلاوتها ولمجلسها أنسه وفتنته الاستفادة على الأقل من الجدة ، وصحيح أنها صديقة صديقه لا صديقته هو ، فليس له مطمع فى أكثر من الحديث والنظر ، ولكن من يدرى ؟.. ولا بأس من إخلاف موعد سميرة ، فانه يستطيع أن يعتذر إليها بعد ذلك وهى تعرف أين تجده على كل حال . .

وهز رأسه متعجباً وقال لنفسه : « كيف يا ترى يعرف فكرى (يعنى صديقه) هؤلاء الفتيات البارعات ؟ » ذلك أنه هو نفسه يجد عسرا وعناء شديدين فى الاتصال بمن يحايلنه من البنات ذوات الدل والحسن ؛ وما أكثر ما تتصدى له الفتيات بجمالهن وزينتهن فى الشرفات وفى الطرق ، فيخجل أن يفعل ما يفعل الشبان الأيفاع ، ويندر أن يزيد على الابتسام ثم ينصرف آسفاً متوجعاً ؛ ولقد وقف مرة فى شارع ينتظر أن يفتح له شرطىُّ المرور الطريق ، وإذا بفتاة تضع كفها البضة على يد الباب وتنظر إليه متبسمة باشة وتقول بصوت حلو :

« افتح ! » ، فحدق فى وجهها مبهوتاً من جرأتها ، مرتاباً فى أمرها ، ثم لم يسعه إلا أن يقول لها : « بالطبع ... تفضلى » ، فرفعت حاجبيها مقدار ملليمترين — كأنما كانت هى الحقيقة بأن تتعجب — وقالت : « صحيح ؟ » بلهجة حيرته ، فلم يدر أهى تستوثق أم تستنكر ؟ ولكنه ترك ذلك وقال : « بالطبع ... ولم لا ؟ ... » ، فضحكت — نعم ضحكت ... قهقهت فى الطريق — وقالت : « مرسى ... » ولكنها لم تركب بل وقفت تتلفت كأنما تشاور نفسها ، أو كأنما تنفض المكان لتطمئن وتستوثق من أنه لا يراها أحد ممن تعرف ثم ردت إليه وجهها وقالت : « فى وقت آخر ... مرسى » كأنما كان يعرفها ويعرف أين يلقاها حين يصبو اليها ، فخفق قلبه خفقات قوية لها فى رأسه دوى ، وأحس أن ركبتيه تخالخلتا ، وصارت يده ترعش كما يرعش المقرور ، وسمع نفسه يقول : « أرجوك .. أرجوك .. لا تخيبى أملى » ، ولكنها رمت إليه ابتسامة ومضت خفيفة رشيقة إلى الرصيف ... وفتح الطريق فى هذه اللحظة ، فلم يسعه إلا أن ينطلق ؛ غير أنه وقف بالسيارة على محاذاة الرصيف ودار فى مقعده ، وأرسل طرفه إلى حيث رآها تذهب ، فلم يعثر لها على أثر ؛ وكان الذى استخفه أنها على التحقيق ليست من بنات الشارع — يدل على ذلك أنها غضة السن صغيرتها ، ولا يكاد يُعقل أن تكون الحرفة قد أدركتها ... مستحيل ! ... ولكن جرأتها ؟ ... أووووه ! ... هذا شىء يطير العقل ...

وكانت له معلمة نمسوية روسية سكن إليها زمناً ؛ ولم يكن يريد أن يتعلم شيئا وإنما كان يبغى أن يعرف فتاة شريفة يستطيع أن يأنس بمجلسها وحديثها ، وأن يقضى معها ساعة كل يوم ينسى فيها حياته المملة ويجدد فيها نفسه ؛ واطمأنت الفتاة إليه ، ووثقت به ، فصارا صديقين ، وكانت قصة حياتها محزنة ، فكانت تقول له بشجوها وهو ينظر إليها وقلبه يفيض بالعطف عليها ، ثم يرفه عنها ويمسح لها على قلبها — حقيقة ومجازا — ولا يتركها إلا بعد أن يعيد إلى وجهها البشر والاشراق ، وإلى نفسها الرضى والسكون ، فوجدت عنده المسكينة ما لم تجده عند أبيها ، وأصدقائها ، فصار عندها فوق الصديق وأقرب ما يكون إلى الحبيب ؛ وأدرك هو ذلك ، ففزع وخشى أن يتورط معها فى علاقة يكون من ورائها حرج له ولها أيضاً ، واتفق يوماً أن فتح أبوها له الباب ، وقال له بلهفة :

« ادخل يا سيدى بسرعة ... ايللى ... ايللى ... »

فسأله : « مالها ؟ »

فقال : « مضطربة ... جداً ... ولا أحد يستطيع أن يعيد إليها نفسها سواك ... عجل يا سيدى ! »

فرمى طربوشه ومعطفه — فقد كان الوقت شتاء — وحث خطاه إليها فألفاها راقدة على سريرها وصدرها يعلو ويهبط كموج البحر ، فتناول كفها فى صمت ومسحها وربّت لها على خدها وإذا بدموعها تتسايل ، وتجرى على خديها الى عنقها ، فقال لها برقة وعطف : « ابكى ... ابكى إذا شئت ... فانه أشفى ... لا تخجلى »

فتنهدت ورفعت كفها الى عينيها ، وكفكفت

من دمعها ، وتركها هو تفعل ذلك وأقبل على ذراعها يدلكها ، وعلى صدرها أيضاً ، وعلى ساقيها ورجليها وهي ساكتة مطمئنة ، وكان وجهه الى قدميها ، وهو يدلكهما ، ثم رمى إليها نظرة خاطفة فألفاها قريرة العين تبتسم كأنما ترى حلماً جميلا ، فرد وجهه الى القدمين وقال لنفسه : « آه .. كان ما خفت أن يكون ... ما العمل الآن ؟ » وحيره السؤال وجوابه ، فترك الأمر للمقادير ولالهام اللحظة ، والتفت اليها وسألها بعينه : « أحسن ؟ » فأجابت بابتسامة ، ونحّت خصلة من شعرها الذهبي عن جبينها الوضاء ، فحنا عليها ، وأراح كفيه الغليظتين على جانبي محياها الدقيق المعارف وقال لنفسه : « هذه فرصتي لتأكيد ما بيننا من التفاوت في السن واستعصاء الحب الطويل العمر ، المأمول الخير بيننا » وكيف يتركها تحبه وهو خليق أن يملها بعد شهور ؟ ومال عليها وثم جبينها فضحكت ضحكة عصبية وقالت : « كأنك أبي يقبلني » وكان هذا ما يريد أن يقرره في نفسها ... أنه كأبيها ... فادعى أنه لم يسمع ما قالت واعتدل وأخرج سيجارة وهم بأن يشعلها ، وإذا بها تنتفض قائمة وتخطف السيجارة ، وترمي بها وتطوقه بين ذراعيها وتهوي على وجهه بالقبل الحرار ، وهو مستسلم لهذه الثورة العصبية وإن كان قد لف ذراعه على خصرها وكأنما أضجرها فتوره ، فدفنته بكفها وانحنت وأنشأت تبكي وتنشج ، كأنما كان قلبها يتفطر ، ثم قالت له وقد سكت قليلا : « معذرة ... إنني آسفة ... قل إنك غفرت لي » فأشار اليها بيده إشارة من يريد أن يقول إنه لا شيء هناك يستوجب الاعتذار ثم قال لها بجد : « اسمعي يا ابلى ... لقد كنت أقدر هذا وأخشاه ... است لي ولا أنا لك فيحسن أن ينتهي الأمر الآن »

فحدقت في وجهه كالبهوتة فقال : « نعم ... هذا خطأ ... خلط فظيع ... وأنا المسئول فقد كان ينبغي أن أقدر هذا كله وأن أستشف النهاية من البداية ... ولكني أعترف أني استعذبت صداقتنا وسكنت نفسي اليها واطمأنت ، فخال الرضا عزمي وأضعف رأيي ، حتى رأيت منك ما رأيت الليلة فعادت الي القوة فهل أنت فاهمة ؟ »

فصاحت به : « ولكن هذه قسوة ... ظلم ... »

قال : « القسوة والظلم أن أدعك تلجين في حالة ليس لها من عاقبة إلا الحسرة والندم والألم »

قالت : « ولكن لا أبغي منك شيئاً ولا مطمع لي في شيء ... إني أعرف أنك متزوج ... دعني أحبك . ماذا عليك لو فعلت ؟ »

قال : « هذا كلام تقولينه الآن ... صدقيني فاني أدري منك بالحياة ، وأعرف بالنفس الانسانية وأطول خبراً ، وأعمق في الأمور نظراً ... تسألين ما ذا علي لو تركتك ؟ الجواب يا فتاتي المسكينة أن علي تبعة أمام ضميري ... أنا أيضاً أحبك ... »

فصاحت مقاطعة : « انتهينا .. تعال تعال .. »

فقال : « مهلاً .. لا تعجلي .. نعم أحبك .. حبي لك حب الصديق بل أكبر وأقوى ... هو كحب الأب أو الشقيق إذا شئت ... ولكنه مع ذلك من نوع آخر ... هل تسمحين لي أن أحدثك بصراحة ؟ حسن ! ... اسمحي إذن ... نعم أحبك حباً لا هو عشق ولا هو صداقة ولا هو حنو أب أو أخ ... لا أدري ماذا هو ، ولكني أدري أنه

يسرني أن أريح يدي على صدرك ، وأن ألمس بأطراف أصابعي تديك ، وأن أطوقك بذراعي ... وأشتهي أن أضمك أيضاً إلى صدري ... أضمك كما يضم الوكر الحمامة ... وأن ألمس شعرك ... أن أعبث به وأرسل خصله المتوجة على خديك الأسيلين ... وأن أرفع ساقك فأضعها على ساقي ونحن نقرأ ... وأحس أحياناً بلسعة نار ... كأن لساناً من اللهب الحامي يرتفع فجأة فيلسع قلبي ثم يزول هذا عني بأسرع مما كان ... فأفيء الى سكوني وبرودي اللألوفين ... وما أكثر ما جلست الى جانبك والكتاب أمامنا ، وذراعي حول ظهرك ؛ وأصابعي على تديك الناهد ... وما أكثر ما نظرت في عينيك كأنما أريد أن أغوص على سر نفسك ... وأحسب أنك لم يفتك ذلك ... ولعلي أسأت به من حيث لا أريد ... ولا أدري ... ولكن ما أكثر ما كبحت نفسي ورددتها عما تشتهي ... إشفاقاً عليك ... اسألي نفسك أين يمكن أن ينتهي هذا إذا بدأ ؟ ... النهاية مخيفة ... لك أولاً ... ثم إني لا أريد أن أعاني الحب ... لا صبر لي عليه ... ولا لذة لي في جنونه ... كلا ... لا أريد أن أحب ... لهذا خنقت العاطفة وهي وليدة ... قلت لنفسي : هي أفعى ، ودستها بقدمي هاتين ... وما زلت أحبك يا إيلي فما يسعني غير ذلك ، ولكنه عطف وحنو ومودة ... ذلك أني كالأعصار ... مخيف ... وأنا أخاف عليك من نفسي لأني أعرف نفسي ... قولي إنك تفهمين وتدركين وتعذرين »

فلم تقل شيئاً من هذا ولكنها ضحكت وقالت : « أشكرك »

ثم قالت وهي تنهض عن السرير وتتمشى في الغرفة : « أشكرك مرة أخرى ... والآن هل انتهى الدرس الذي تلقيه عليّ ؟ »

فقال : « لا تهكمي ... اني أتكلم جاداً ... لماذا لا تفهمين ؟ »

فقالت وهزت كتفيها : « أحسب أن إدراكي قاصر ... هذه الفلسفة عويصة »

فنهض وقال : « إذن لم يبق لي كلام ... فهل تسمحين لي أن أخرج ... أعني أن أودعك ؟ »

قالت ببرود : « أوه ... أمسافر أنت ؟ »

قال : « أظن ... الغالب ... يحسن أن أسافر »

قالت : « أرجو أن أراك بخير »

وشعر وهو خارج أنه أذلها ، فقد باحت له بحبها فصدها وردها بقسوة وغلظة . ولكن القسوة تكون في أحيان كثيرة خيراً من اللين الوبيل ... قسوة ! ولين ؟ كلام فارغ ! فلسفة سخيفة ! لماذا لم ينعم بهذا الحب الذي وفق إليه ؟ ... هذه فتاة جميلة مهذبة تحسن الحديث وتستطيع أن تخوض معه في كل موضوع ، وقد ألقاها القدر بين يديه ، وصارحته بأنها تحبه ، وأنها لا تبغي منه شيئاً ، وأنها تدرك مقتضيات موقفه ، ولا يخفى عليها أنه متزوج ، وأنه رب أسرة ، وأن لا سبيل بينهما إلى أكثر من الصداقة الوثيقة ، وأنها موطنة نفسها على ذلك كله ... وهو يحبها أيضاً ... ليس حباً في الحقيقة ولكنه يأنس بها ، وتطيب نفسه بالوجود معها ، وينشرح صدره ويذهل عما يسخطه ويضجره في الحياة ، فلماذا قطع الحبل وأبى إلا أن يكون سخيفاً أحمق ؟ ... وأين يجد خيراً منها ، وأصفى نفساً ، وأكرم خيماً ، وأحسن وداً وأظرف وأحلى ؟ ... أوه ! ... ولماذا يطلب غيرها ؟

لماذا لا يقنع ببيته ؟ ... يقنع ؟ ... نعم ينبغى أن يقنع بحياته الهادئة المنتظمة ، ماذا جرى لعقله ؟ يجب أن يروض نفسه على الرضى والسكون والقناعة بالوجود ، كما راض نفسه على قطيعة إيللى ... أيقوى على هذا ولا يقوى على ذاك وهو أولى ؟

ولم تتركه إيللى إلا بعد أن يئست — كتبت إليه بضع رسائل تستعطفه وتلح عليه أن يرجع فكان يرد إليها الرسائل من غير أن يفضها ، فقد كان يعرف خطها فلم يسعها إلا أن تقصر

ومضت شهور ، استطاع فيها أن يحمل نفسه على مكروهها ، وأن يلزم بيته ، ويتخلى لعمله ، ويصرف عينه عن النظر والتطلع ، وقلبه عن الاشتهاء ، حتى لقى سميرة ... فتذكر أنه رأى مرة طفلا يفحص الأرض بقدمه فتقلقلت حصاة صغيرة فنحاها الغلام بأصبع رجله ، وإذا بالماء ينبع ويروح يفور منها ويسيل على وجه الأرض . . كذلك هو . . كان شيء فى نفسه محبوسا . . . كانت عواطفه الزاخرة لا يحجبها إلا شيء رقيق . . فلم يكد يلتقى بفتاة تضع أصبعها على قلبه ، كما كان ذلك الغلام يضع بقدمه ، حتى انهدم السد الذى يحجز الطوفان ، كما تقلقلت الحصاة فانبثق الماء من تحتها . ولم تكن سميرة ترضيه ولكنها كانت تعلة . . وكان فيه وفاء فأبى له أن يرمى بها على حين تقبل هى عليه . . غير أنه مع ذلك مل . . مل . . مل . . يريد خيراً من سميرة . . أذكى وأبرع . . وأرشق وأظرف . . أحلى ابتساما . . وأرسخ ثديا . . وأعدل قواما . . لقد سمنت سميرة . . غلظت ساقها واكتنز لحمها . . أوه لماذا تركت نفسها تزداد لحما وتنقص جمالا ورشاقة ؟

وهو اليوم على موعد معها ، ومع فكرى وصاحبته « رفقة » . . وقد اعتزم أن يخالف موعد سميرة وأن يجدد نفسه بلقاء رفقة وان كانت لغيره . ودخل عليه فكرى وقال بلا تحية : « هه ، قم » فأحس عاقل أن رأسه يدور ، ويدور وقال : « إلى أين ؟ ألا يمكن أن تعفينى ؟ »

قال فكرى : « كيف يمكن ؟ إن رفقة تلح على أن أجيء بك »

فقال لنفسه : « تلح عليه ؟ لماذا تلح ؟ كلام فارغ ... وهيه غير فارغ فماذا يعنينى من رفقة أو غيرها ؟ . . لماذا أعذب نفسى وأشقيها ؟ . . ليس همى رفقة . . . بل همى أن أجد فتاة أحبها وحسبى منها ألا أكون ثقيلا عليها وبغيضاً إليها ... يا لتهكم الأقدار ... كانت لنا فتاة تحبنا وتقنع منا بأن ندعها تحبنا ... ولم نكن نكرهها .. ولكنا اغتررنا وتبطرنا فرفسنا النعمة التى ساقها إلينا حسن الحظ والآن نندم ونشتهى أن نحب ونقنع بألا نكون ثقلاء ... يا لسخرية الأقدار ! »

وقال لفكرى : « أرجو أن تعفينى . . . لا أستطيع ... رأسى لا أدرى ماله ... ولكنى لست فى حالة تصلح لمثل هذه الجلسة »

فقال فكرى ملحا : « قم يا شيخ ... رفه عن نفسك ... هذا تأثير العمل المتواصل ... يجب أن تريح نفسك قليلا ... إن هذا انتحار ... قم . قم .. »

فأبى عاقل إلا العناد ، وأصر على الاستعفاء ، فلم يجد فكرى حيلة فانصرف آسفا

ولم يكد يذهب حتى ندم عاقل ونازعته نفسه أن يلحق به ، ولولا الحياء لفعل . وخرج من مكتبه وهو يقول لنفسه : « مالى أنا ؟ إنهما حبيبان فما

محلى بينهما ؟ حسنا فعلت بالاعتذار » وقال لسائقه — فقد كان له سائق بعفيه أكثر الأحيان من العمل — : « اذهب أنت بالسيارة . . سأتمشى »

فسأله السائق : « ألا أقول لهم شيئاً فى البيت ؟ »

قال : « لا أعرف متى أعود ... وخذ ... أعط الست هذا »

وناوله خمسة جنيهات ، وأحس بالراحة لما فعل ذلك كأنما كفّر به عن سيئة الصباح والريال الذى دس به يده تحت المخدة ولم يترك سواه لزوجته ؛ ومشى يحدث نفسه أنه كان سخيفاً مجرماً ... معه كثير ... غير الخمسة الجنيهات التى دفع بها إلى السائق أيضاً ... ومع ذلك يستبقيها ويترك ريالاً ... ولماذا ؟ ... لأنه قد يتفق له أن يلتقى ... أوه باللسخافة ... ونقص العقل ... وسوء الرأى ... ماذا ترى يكون رأى زوجته فيه لو عرفت هذا ؟ .. زوجته التى تثق به ولا يمكن أن يختلج فى نفسها شك أو تخطر على بالها ريبة ؟.. ولو كانت زوجته من هؤلاء المصريات اللواتى لا يفتأن يخرجن إلى حيث لا يدرى أحد ؟ ... أعوذ بالله ! ... لا بل الحمد لله ، والشكر له ، على هذه النعمة الجزيلة ... نعمة الاطمئنان على عرضه وشرفه ... وهل جزاؤها أن يخونها وهى آمنة مطمئنة ، وواثقة فى عفته وطهره ؟ ... لا . يجب أن يكف عن هذا كله ... إن أعصابه متعبة مرهقة ، وهو يزيدها إرهاقاً بهذا السلوك المعيب ، فليكف ليريح أعصابه ، إذا لم يكف وفاء لزوجته واحتراما لها ... بل يكف وفاء لها ، وإلا كان الكف غير خليق بأن يريح ضميره ... يكف والسلام ... هذا هو المهم ... البواعث لا تهم هنا ... ولكن أهى لا تهم ؟ ولا قيمة لها ... أهذا صحيح ؟ ... أوه ... هذا وجع رأس ... أكف والسلام ... وبعد ذلك أبحث عن البواعث ... أستطيع أن أقنع نفسى بشرف البواعث ... ولكن لماذا أغالط نفسى فى الحقائق ؟ ... أمغفل أنا ؟ ... من الذى قال إنى أغالط نفسى ؟ ... إذن كن صريحاً ياشيخ ... هب الآن أن فتاة جميلة من اللواتى يصبو إليهن قلبك قابلتك الآن ؟ ... مجرد فرض بالطبع ... لا أمل فى ذلك ولا مطمع ... ومن أين تجىء منى النفس هذه ؟ ... ليتها تجىء ! ...

وإنه لماش يحدث نفسه بهذا وما إليه ، وإذا به يلتقى بصديق يصيح به بصوت عال كأنما ظنه أصم : « أهلاً » ويعطها كأنما يصيح بقوم بعيدين ، فقال له عاقل : « ماذا عندكم اليوم من المأكل ؟ » وكانت صداقته به وثيقة ، وبين الأسرتين مودة ، فقال صاحبه « زكى » :

« أوه . . وما الذى أدرانى ؟ تعال معى وكل الموجود »

قال عاقل : « حسن . امض بى الى المائدة فانى أتضور جوعا »

فسأله زكى : « وأين السيارة ؟ مع الست ؟ »

قال : « لا الست ولا السيد . . . تركتها لأتمشى »

وبلغا البيت وأقبلت عليه أخت زكى — كريمة — تحييه وترحب به ، فقال زكى : « ألا تهنئها ؟ »

قال عاقل : « خير ان شاء الله ؟ . مبروك على كل حال »

فاضطرم وجه كريمة ، وكانت صبيحة الوجه

نضيرته ، ونجلاء حوراء ، وهيفاء ممشوقة ، وقال زكى : « أنظر الى يدها وخمن »

فنظر عاقل فرأى الخاتم فابتسم وقال : « هل أهنئ بلسانى أو بفمى ؟ »

فقال زكى : « وما الفرق ؟ »

قال : « الفرق هو هذا . تعالى هنا يا ستى . . أين ينبغى أن أقبلك ؟ . . أقول لك . . فى كل مكان إلا شفتيك . . أدع هذين لخطيبك . . فان هذا حقه ولا يجوز أن أعتدى عليه »

ودار بنفسه إحساس غريب وهو يلمس خدها الناعم الطرى ، بشفتيه ، فنظر فى عينيها وهو مقطب وإن كانت عينه تضحك وقال : « هو أولى بالتهنئة . . ليتنى أكون على يقين من أنه يستحقك . . . من هو على كل حال ؟ »

فقال زكى : « ابن عمى ، سيد »

فقال عاقل : « سيد . . . ! »

وأمسك فما يليق أن ينال منه أمام خطيبته ، ويبسط لسانه فيه على مسمع منها ، مهما بلغ من سمة صدرها

وقال زكى : « يظهر أنك لا ترضى عنه ؟ »

فقال عاقل : « طبيعى ألا أرض عن أى رجل يخطفها منا »

فقالت كريمة : « ولكنه لن يخطفنى »

فقال عاقل : « بالطبع سيخطفك . . . أنت نرجستنا الآن جميعاً ولكن غداً ؟ تكونين نرجسته هو وحده . . . ثم إنه سيذهب بك الى الأقصر ، فلا نعود نراك إلا كل حين وحين »

وقاموا الى طعامهم ، فقال عاقل وهو يغرك الخبز الطرى ، أو لبابه على الأصح ، ويفتله :

« ما قولك يا زكى ! إنى أريد أن أحب »

فقال زكى وقد تولته الدهشة : « تريد . . . أن تحب . . . ؟ »

قال : « غريب . . . أليس كذلك ؟ ولكنها الحقيقة . . . نعم أريد أن أحب . . أخشى على نفسى هذا الجفاف فى حياتى ، أحس أنى سأذوى إذا لم يسقنى الحب ماء الحياة . . . »

فقال زكى : « ولكن هل الحب بالارادة ؟ »

وقالت كريمة : « ولكنك تحب زوجتك ؟ »

فقال يجيبهما : « نعم بالارادة . . . أشغل قلبك بامرأة معينة ، يُشْغَل . . . وأنت يا مولاتى أقول لك إنى أحب زوجتى . . . وسأظل أحبها . . . ما فى هذا شك . . . بحكم العادة على الأقل . . . ولكنه حب هادئ فاتر . . . قولى إذا شئت إنه حب رزين . . وماذا ينفع الحب الرزين ؟ . . . ان الانسان يحتاج أحيانا الى وقدة الأتون ليصهر نفسه فى النار ، فيصفو معدنه من الأخلاط التى تتكدس كالصدأ على السلك فتقطع تيار الحياة . . التيار الروحى الذى هو سر الحياة . . . وهذا ما لا تستطيع زوجتى الآن . . . ولا أنا أستطيعه لها . . . كلانا أصبح غير صالح لأن يثير فى نفس صاحبه تلك الزوبعة التى تحرك أعماق النفس وتطفى على السطح بعض ما رسب فيها ، وما لعله أصلح من الطافى الآن . . . النفس تحتاج الى الزوابع أحيانا لابراز الكامن وإثارة الدفين . . . من يدرى ماذا فى أعمق أعماق نفسى ؟ . . . وماذا يمكن أن يدفع بهذا المضمر الا ثورة شديدة ؟ . . . وكم دفنت حبا بارادتى ، فلماذا لا أحب بارادتى ؟ . . . »

فقالت كريمة — وأحس عاقل من نبرات

صوتها العطف — : « يظهر انك تعذبت كثيراً… صوتك وحده يدل على ذلك »

فقال عاقل بابتسام : « أوه ! … إن أشد ما يعذبني . . أقسى ما أكابد ، هو هذا الفراغ . . نفسي أصبحت صحراء جرداء فهل الآلام إذا رحت ألتمس الري والخصب ؟ »

فقالت كريمة : « ولكن زوجتك . . . لا تستحق هذا منك »

فقال : « يافتاتي تعلمي هذا الدرس . . لا تنتظري أن تظل نار الحب مستمرة . . لا يمكن . . ما من شيء في الدنيا يدوم ويخلد على الأيام ، فلماذا يخلد الحب وحده ؟ . . هل تحبين خطيبك هذا ؟ »

فاستحيت أن تقول شيئا ، ولكنه خيل إليه أنه يستطيع أن يقرأ في وجهها أن كل فرحتها هي بالزواج في ذاته ، وأنه ليس ثم فيما عدا ذلك شيء خاص .

وكأنما أرادت أن تحول الحديث عن مجراه ، فقالت وهي تضحك : « قل لي من تنوي أن تحب ؟ »

قال : « من تظنينها جديرة بحبي ؟ اختاري لي »

قالت : « هل تريد أن تتزوج ؟ »

قال : « يا المرأة ؟ لا تفهم إلا هذا الاحتكار الممل … كلا … أريد أن أحب … فاختاري لي كما يختار الصاحب لصاحبه الجياد التي يظنها رابحة في السباق »

قالت وهي تضحك : « مرسي … جعلتنا جياداً … »

قال : « لا تهربي … إنك تعلمين أني لا أعني هذا … فاختاري … أريني ذوقك »

فانتقد وجهها وقالت : « وهل أنا أعرف ! »

ونهض ليرقد دقائق ، فقد كان والداها في طنطا يزوران السيد البدوي ، ففي البيت متسع له ، وخطر له وهو يمضي الى غرفة من غرف النوم ، وهي تمشي أمامه ، أن في وسعه أن يحبها … فان لها لفتنتها ، وإن كانت دون اللينور — ايللي كما اعتاد أن يسميها — آه لماذا ترك ايللي وتخلى عنها ؟ حماقة ! لا خير في الندم الآن … ونام وهو يفكر في كريمة وفي إمكان … ولكن كيف يمكن ! كيف يمكنني ؟

وأيقظته ، كما رجا منها أن تفعل حوالي الساعة الخامسة مساء ، فمد يده اليها فأنهضته ثم أراح كفه على كتفها وهو يقف وأحس أن يده انحدرت عفواً الى صدرها ، ولمست ثديها الناهد … فشعر بالدماء تغلي في عروقه ، ودار رأسه فجذبها اليه ، وضمها وقبلها … قبل فمها هذه المرة

وقالت وقد تخلصت من عناقه : « احذر أن تغلط مرة أخرى … لست لك … »

فسألها : « ولماذا لا تكونين لي » وخطر له أنها تقول له ما قاله هو لايللي ؟ يا للسخرية !

قالت : « أنت تعرف … »

قال : « أتكرهين أن أحبك ؟ »

قالت : « هل تحبني ؟ »

قال : « من يدري ! ربما كنت أحبك … لعلي كنت أحبك طول الزمن الذي أتوهم فيه أني لا أحب … لعل هذا كان السبب فيما أحس أني أعانيه من الشقاء … شقاء الذوى والجفاف … سأرى الليلة … غدا أقول لك هل أحبك أو لا أحبك »

قالت : « لماذا تهكم علي ؟ »

قال : « والله إنى لصادق ... لست أعرف نفسى ... تعالى ... »

قالت : « احذر ... ألم أقل إنى لست لك ؟ ثم ان زكى قادم »

قال : « أهذا كل ما تخافين ! »

قالت : « كلا ... لست لك ... فلا تحرجنى »

قال : « قبلة واحدة »

فهزت رأسها وقالت : « إنى آسفة ... متألمة لك ... أشعر أنك غير سعيد ... ولكن ماذا أصنع اعذرنى »

قال : « أشكرك على هذه . صدقت . لست لى معذرة »

قالت : « الآن خذ القبلة . أصبحت تستحقها . »

فقبلها . لا قبلة خفيفة بل بنهم وشره ، فقالت وهى تنأى عنه وتتحسس شفتيها : « أعوذ بالله ... ورمت شفتاى ، ما هذا ؟ »

قال : « اعذرينى ... صرت كالجمل الذى يدخر للأيام المقبلة .. أيام القحط والمحل والجوع .. »

ومضى بهما فى ذلك المساء إلى السينما ، وكانت جالسة بينه وبين أخيها ، فكان يهمس فى أذنها من حين إلى حين ، كأنما كان يفترض علمها بما هو دائر فى نفسه من الخواطر : « صدقت . لست لى » فكانت تبتسم ولا تقول شيئاً . وماذا عسى أن تقول ؟. ثم همس : « هل أنت ساخطة على ؟ »

قالت : « كلا . بل أنا متوجعة لك . ومتعجبة أيضا : أظن أنك محتاج إلى راحة »

قال : « صدقت . إنك حكيمة جداً . وقعت على السر . اهتديت إلى أصل الداء . الراحة ؟ كيف السبيل اليها وأنا كالبغل المشدود إلى الساقية وكلما ونى أو وقف صاح به صاحبه : « عا ... عا » أو ألهب ظهره بالسوط ... ليس لى سيد ... ولا أسمع أحداً يصيح بى ليستحثنى ... ولكن السوط فى يد الزمن ... ووقعه على روحى ، لا على الجلد ، ولو كان على الجلد لهان . نعم يجب أن أرتاح ... أقول لك ... سأذهب الى لبنان وآخذ زوجتى وأبنائى معى ... ليتك تجيئين معنا ... إذن لتم هنائى ... هل تستطيعين ؟ »

فهزت رأسها فقال : إذا كان كل ما يمنعك ... فهذا لا قيمة له » ولم يصرح

فقالت : « كلا ... يجب أن أكون بعيدة عنك ما رأيت منك اليوم يوجب الحذر من قربك ... أنت كالنار ... ولست أريد أن أحترق »

قال : « صدقت ... وأنا يجب أن أخمد نارى ولماذا ؟ ولكن لماذا أخنق نفسى ؟ »

قالت : « يجب ... إنى كبنتك ، ولكنى أعرف أن هذا هو الواجب وألح عليك أن تلتزمه

فأحس أن خنجرا نفذ الى قلبه ... كبنته ... وارتفعت يده إلى شعره كأنما ظن أنه فى وسعه أن يرى الشعر الأبيض فى الظلام بيده ! ! كبنته ؟ ؟ لولاهذه الشعرات البيضاء ؟ ؟ أوه !.. ما الفائدة ؟ ما الفائدة ؟

وظلت كلمتا « ما الفائدة » تدوران فى نفسه ، ويرددها بلا صوت ، وهو راقد فى ليلته تلك ، على سريره إلى الفجر حتى غلبه النوم !

ابراهيم عبد القادر المازنى